قيمة المشورة الفنية

فى حياتنا العامة

يسير العالم نحو التخصص . لأن التوسع فى المعارف يجعلها عبئا كبيرا ما لم يتحمله أفراد كثيرون يتوزعون تفاصيلها . وهذا واضح فى الخبرة مثلا ، فإن خبير الخط لا يمكنه أن يكون خبير الحساب ، وكذلك الحال فى الفنون والعلوم فان مهندس الرى لا ينتفع به فى هندسة المبانى . وقد كان الطبيب إلى وقت قريب عاما يعالج جميع الأمراض. ولكن الاختصاص قد أخذ مكان التعميم . ونحن نعرف الآن أطباء القلب والعين والأمعاء . بل نعرف أطباء يختصون بمرض معين لا ينظرون فى سواه مثل الجذام أو السرطان أو السل .

وهذا الاختصاص يتمشى مع الرقى العام . فقد كان المتجر قبل نحو مائة سنة دكانا صغيرا يقوم فيه فرد أو فردان بجميع حاجاته وحاجات الزبائن . فكان البائع هو المحاسب وهو الذى ينظم البضائع للعرض وهو الذى يجلبها من بائع الجملة . أما الآن فان كل عمل من هذه الأعمال قد اختص به فرد أو أفراد بحيث لا يجيز أحد منهم لنفسه أن يأخذ عمل غيره . فإن عرض البضائع فى الفترينات قد صار عملا خاصا بل اختصاصيا . بل إن واجهة المتجر قد صار لها مهندسون يدرسون طراز الزينة والألوان . كما صار الاعلان من الأعمال الاختصاصية التى لا يجرؤ صاحب المتجر نفسه على أن يتولاها ، لأنها تحتاج الى خبرة كبيرة عن نفسية القارئ واتجاه الميول الاجتماعية والمعنى بل المعزى من الكلمة أو العبارة . والتاجر الذى يهمل هذه الاختصاصات المختلفة يتخلف عن قرنائه وقد تنتهى حاله بالبوار . لأن المزاحمة العظيمة التى تصل الى حد المباراة تجعل للدقة قيمة كبيرة قد يقرر بها الظفر أو الهزيمة فى معترك التجارة .

ولكن اذا كان هذا شأن التاجر فى عنايته بالخبير المختص واستخدامه له فإن هذا يجب أن يكون شأننا أيضا فى أحوالنا المختلفة . فان فى المحاكم مئات بل آلاف القضايا التى نشأت من تعاقدات كتبها أفراد غير مختصين وظنوا أنها حسمت لهم نزاعا أو قررت لهم وفاقا فاذا بها — لقلة خبرتهم بكتابة العقود — قد افتتحت لهم عهدا من النزاع يطول أشهرا وسنوات . وذلك لأن كلمة صغيرة قد غمض معناها أو عبارة قد حشرت ونقضت ما سبقها أو معزى يدق ويخفى على المتعاقدين قد انطوى عليه أسلوب العقد — كل هذا وغيره يجعل القاضى يشك فى نية أحد الفريقين ويحكم بغير ما قصد اليه الفريق الآخر . ولو أن هؤلاء عمدوا

الى محام يكتب لهم العقد لقاء بضعة جنيهات لاقتصدوا بعد ذلك فى الوقت والعناء والمال، ولما جرؤ أحد منهم على طرق أبواب المحاكم لكى يحصل على تأويل يتفق وأغراضه ويؤدى به خصمه .

وقيمة الخبرة والفن لا تقتصر على فائدة المحامى . فان الثرى الذى يشرع فى بناء منزله ويستغنى عن خبرة المهندس انما يعرض ماله للخسار والبوار . فإنه يسىء فى اختيار المواد كما يسىء فى تنظيم الغرف . فلا ينتهى من البناء حتى يحتاج الى التغيير أو التبديل هنا وهناك ، ويتحمل من جراء ذلك تكاليف مالية ثقيلة ما كان أغناه عنها لو أنه استشار مهندسا واتبع نصيحته وقبل خبرته . ذلك أن المهندس يدرس البيئة وهو يعرف الحى الذى سيقام عليه المنزل : هل هو تجارى يمكن أن يحتاج الى دكاكين فى المستقبل حتى يهيئ لها مكانها ، أو هل هو من الأحياء التى يسكنها المتوسطون أو الفقراء أو الاغنياء فينظم المساكن " الشقق " وفق الحال التى يطلبها السكان القادمون . ثم يقارن بين أثمان المواد ويختار أرخصها وأمتنها . ومهما أدينا لهذا المهندس من مكافأة فإننا سنكسب عشرات أمثالها من فضل خبرته وثمرة نصيحته . وكم من منزل فى القاهرة ندخله قصد السكنى فنرى الرحابة والمتانة ووفرة الغرف مع قلة التنظيم فنحس كأننا لسنا فى منزل متمدن بل فى دوار ريفى . وذلك لأن رب البيت قبل نحو عشرين أو ثلاثين سنة قد استقل بذهنه ووضع الترسيم دون أن يستشير مهندسا فنيا .

وكذلك الشأن فى الأمراض ، فان الطب فن وعلم معا . وهو قد تفرع وأصبحت تفاصيله اختصاصات مستقلة . وهذه الاختصاصات ليست للحذلقة أو التنطع ، وانما هى للتوسع العظيم الذى طرأ على المعارف الطبية بحيث لا يمكن لطبيب أن يعالج كل مريض . فطبيب القلب غير طبيب الأعصاب ، وطبيب الأعصاب غير طبيب الجلد . بل إن طبيب النفس غير طبيب الجسم . ومن التنطع بل من البلاهة العظيمة مع كل هذه الاختصاصات أن يعمد أحدنا الى " وصفة بلدية " لمعالجة أحد الامراض . وفى أحيائنا الوطنية ما زلنا نرى تذكرة داود الأنطاكى تباع ويقبل على قراءتها العامة ويعملون بها ينشدون منها الشفاء كأنها خلاصة الفن والعلم فى الطب . وهذا ضرر عظيم بل ضرر فادح ، لا لأن هؤلاء المرضى يتخذون من الدواء ما لا قيمة له فقط ، بل لأنهم يشغلون أنفسهم بهذا الدواء ويطمئنون إليه اطمئنانا كاذبا يمنعهم من طلب المشورة الفنية من الطبيب العصرى المختص . وكثيرا ما يقصد أحدنا الى زملائه أو رفقائه فيسمع الوصفات البلدية لهذا المرض أو ذاك مع أن الطبيب نفسه لا يجرؤ على الجزم بصحة الدواء الذى وصل اليه . ولكن هذا الذى لا يجرؤ عليه الطبيب نجد عشرات من غير الأطباء — غير المختصين — يتحدثون عنه بلهجة الجزم . . . ولو وقف الضرر عند حد اللغو لهان . ولكن المريض الذى يتلهف على الدواء يترك الداء وهو يستفحل فيه بعيدا عن مشورة الأطباء لاعتماده على مثل هذه الوصفات العقيمة .

إننا نعيش فى زمن التخصص ، فيجب أن ننتفع بالمختصين . أى يجب أن نعتمد على المحامى والطبيب والمهندس والخبير . وما نؤديه لهم من أجر على خبرتهم وفنهم لا يبلغ عشر ما سوف ننتفع به منهم . وهناك من المتمدنين فى المدن الأوربية من يعتمد على الخبراء حتى فى غرس البستان الملحق بالبيت . بل حتى فى تأثيث المنزل والطريقة التى توضع بها قطع الأثاث . ولم نبلغ بعد هذا التأنق ، ولكن حسبنا الضروريات قبل الكماليات . فإننا نغنى أنفسنا وأولادنا وشركاءنا عن عناء كبير أو شقاق عظيم عند ما نترك للمحامى حق كتابة العقد فى الشركة أو الوصية أو البيع أو غير ذلك مما تحمل تفاصيله تأويلات يعمى عنها المتعاقدون ولكن القاضى يراها واضحة بارزة أمامه . وكذلك الشأن فى الطبيب والمهندس .

ويحسن الناس الى أنفسهم كثيرا كما يحسنون الى غيرهم أكثر لو أنهم تواضعوا فلم يتحدث التاجر عن علاج الأبدان . ولم يتحدث المهندس على أثمان الجواهر . فإن لكل منا عمله الذى يختص به ، فليكن حديثه عنه وليستمع الى غيره من المختصين فيما لا يعرفه . وكم من مرة يتناول الحديث عن السرطان أو البول السكرى أفراد وتمتد بينهم المناقشة فى حين قد يكون بينهم طبيب وهو مع ذلك صامت يتعجب من جرأتهم على ما يجهلون . وهذا الحديث يعد سمرا أو لغوا قليل الضرر إذا كان المتحدثون أصحاء . ولكن الضرر يفدح إذا كان بينهم مريض يستمع الى لغوهم . بل كم من مرة يفكر أحد المتيسرين فى بناء منزل يعيش فيه أو يؤجره ويستغله ويؤمل أن يتركه ثروة لأولاده فيعمد الى ترسيمة بنفسه أو يستمع لآراء زوجته كأنها قد انقلبت مهندسة تعين مكان المطبخ وغرفة المائدة ونحو ذلك . فلا يكون من هذا الاستقلال والاستغناء عن المهندس الفنى غير البوار والخسار . وفى القاهرة وسائر مدن القطر مبان ضخمة لا يستطيع الانسان أن يقدر قيمتها الا بمقدار ما فيها من أحجار وطوب لأن مكانها وطريقة بنائها وتنظيم غرفها ، كل هذه الأشياء بعيدة عن الذوق والخدمة .